الله وايّاكم. ممّن اعدّ قلبَه. قبل تلهّب غلّته. واستعدّ للقاء ربه. قبل شقاء نفسه. وتأهّب للشمول بالرحمة. قبل النزول في الظلمة. واستوجب الخلود في النعمة. قبل حلول النقمة بشفاعة السيدة الطاهرة البتول والدة الرحمة. وام الحياة. ذات الطوبى والشفاعات. وجميع الملائكة والانبياء. والرسل الابرار. وجميع القديسين والقديسات الاحرار. امين

سياحة حديثة في جبّة بشرّاي

للاب لويس رزق الله اليسوعي (تتمّة ما سبق)

٢

قد ليلة قضيناها في قلالي دير مار سركيس ما كان اهنأها عقبها صباحٌ استبشرنا من بلجته الخير وبسط النفس. فقمنا عند ابتسام فجر الخميس وسرنا بنشاط الى وادي الارز. فكانت طريقنا في بادئ الامر عسرة صعبةً المرتقى حتى بلغنا بعد قليل نهجاً سوياً سلكناهُ فافضى بنا بعد ساعة من الزمن الى الهضاب التي تنتصب فوقها غابة الارز. فشينا مدّة دون ان نراها بالعيان ونحن على نجوة تعلو الوادي الذي عند منتصفهِ يتبجّس نهر قاديشا ويفور بدويّ عظيم فوقفنا هنيهةً لنُشبع النظر بالمشاهد التي كانت محدقةً بنا: المكمل وراءنا ومن عن شمالنا. وبازائنا تنتف مستوٍ كأنهُ الجدار تضاهي قمّتهُ قمة ظهر القضيب علوًّا. وعند اقدامنا نبعٌ فوّار يُسمع لهُ شبه هزيم الرعد ويسيل مزبدًا الى سهواة الأودية المتّصلة بعباب البحر. فذكّرتنا هذه المناظر وصفًا انيقًا للشاعر الفرنسي لامارتين أطنب فيهِ على هذه الانحاء. فأوغل

ثمّ ما لبثنا ان بلغنا الى غياض الارز وهي لا تظهر كلها معًا لان موقعها كما سبق القول على عدّة نجوات تختلف في ارتفاعها ولكن ما لاح لنا منها لاول وهلة أعجبنا. فراقنا منها لونها الشديد الخضرة وجذوعها المرتفعة وافنانها الممتدّة على شكل طبقات متفاوتة مخروطة الرأس رائعة المنظر. وفي مقدمتها ارزة كاملة الصورة بهجة المنظر جامعة لمحاسن أخواتها تخيّرتها جريدة الارز الغرّاء. فاتخذتها كشعار تزين بهِ كل اعدادها وقد جعل لخرج (حرش) الارز سور يُحدق بهِ من كل جهاتهِ فيصونهُ من الماعز وايدي

العدوان. فما انتهينا الى داخله حتى اخذنا الدهش ولميت بنا نشوة الحيرة عند مرأى هذه الآكام المظلّة بافياء مخلّدة لم تخترقها منذ اجيال عديدة اشعّةُ الشمس. والتربة التي فيها تغرس جذور هذه الاشجار البهيّة انما هي كلسيّة لكنّ النظر لا يكاد يطّلع عليها لما يملوها من نفاية الاوراق والاغصان الساقطة هناك منذ غابر الاجيال. والاشجار التي لقيناها في مدخل الحديقة أقرب عهدًا من غيرها لكنّها ابهى منظرًا واجمل صورة يخال لناظرها انّها سواري سفن تتخايل عجبًا في الهواء وقد اغصانها الوارفة كأنها الشُرُع تدفعها الريح في عباب البحر

ثمّ مشينا في وسط هذه الحميّة النضرة فوجدناها مَبْردةً للبدن بعد ما شعرنا من حرارة الشمس في سيرنا الحثيث. وكنّا ننتقل من ربوة الى ربوة ونفحص صفًا بعد صفّ ونجد لكلّ شجرة خواصّ جديدة. ونحن مع ذلك نستنشق ريّا الارز العطرة وهي اطيب من رائحة الصنوبر والشوح الجبلي الذي يُعجب به أهل اوربّا. وقد شبّه العلامة شلتز (Schultz) نسيم الارز بنغمة البلسم المكيّ

وكانت بعض سطور الارز تلوح لنا كعواميد رواق جميل او بيوت بديع فرقهُ سقف من الاغصان المحتبكة ببعضها جدلتها يد الطبيعة على هيئة فخيمة يعجز عن تقليدها ابرع المهندسين

ولم نزل نطوف في جهات الارز حتى بلغنا بُقعةً منفردة موقعها في مُنحبط من الارض على شكل دائرة فهناك ليس بعيدًا عن المعبد الذي شيّدهُ السعيد الذكر غبطة السيد بولس مسعد ترى أقدم اشجار هذه الغابة عهدًا. فعددها اثنتا عشرة شجرة خمس منها على مقربة من المعبد والسبع الأُخر على اكمة مجاورة. وبين الخمس الاولى ترى ملك هذه الغيضة وساطانها. وهي ارزة غاية في الكبر موقعها في منحدر من الارض لا يزلهُ السيّاح لحرج مكانهِ. ومن يعتبر هذه الارزة عن بُعد خمسين قدمًا لا يستعظمها امّا اذا اقترب منها وجدها آية من آيات الخليقة فكأني بها في وسط اخواتها جبّار يقبختر بين اقرانهِ وهو اشدّ منهم صولة واعظم جسمًا. ودائرةُ جذع هذه الارزة نحو ١٥ مترًا. وقد بلغت بها قوّة حياتها الى ان فرّعت جذورُها فرعين كبيرين علا ساقها وتكاثفت اغصانهما فهي بينها كالسيد الاروع الخلاحل يتباهى بولديه الكهلين ويسند اليهما رأسهُ المُنحسر تحت افنانهما الغضة. ولا غرو ان كبار السيّاح أعدّوا هذه

الارزة من بقايا القرون السالفة التي شاهدت عهد سليمان فصبرت مذ ذاك على ملمّات الحدثان ونوائب الزمان

امّا السبع الشجرات التي تنتصب فوق الربوة الحاذية فهي احسن موقعاً والى ظلّها يأوي السيّاح ويضربون تحتها خيامهم. وعلى صفحات جذورها اسماؤهم وتاريخ حجهم اليها. ومنهم قرأنا اسماءهم من المشاهير الشاعر دي لامارتين والكاتب البليغ دي جرامب (de Géramb) والعلامة بُرَوا (Bruat) وعلم جرًّا

ومن علوّ هذه الربوة يمتدُّ البصر الى مجموع شجر الارز الثابت في هذه البقعة وعددها بين كبرى وصغرى لا يربي على ٣٧٠ وكانت الارزات الكبرى قبل عهدنا بثلاثمائة سنة ضعف ما هي عليه الآن. فان احد السيّاح عدّها سنة ١٥٦٥ فوجدها ٢٥ ارزة وهي لم تزل تقلّ شيئاً فشيئاً مذ ذاك العهد لعدم اكتراث اهل تلك المقاطعة لها سابقاً الى ان تصدّت حكومة لبنان لهذا الخلل في ايّامنا وتداركتهُ ببناء السور لئلا يصيبها ما اصاب اخواتها من التلف

وقد سبق القول انّ التربة الاصلية يعلوها طبقة من نفاية الشجر وورقه المتساقط وهذه الطبقة تختلف بين ٥٠ الى ٧٠ سنتيمترًا عمقًا ينبت فيها صغار الارز الّا انها اذا بلغت طول الاصبع او الاصبعين تشقّقت وهلكت وهو امر مقرَّر حتى ان احدث ارزة تُرى في هذا المكان ترتقي الى ما فوق المئتي سنة

امّا سبب ذلك فتضاربت الاقوال في بيانهِ. فمن قائل انّ ظلّ الاشجار الكبرى يحجب عنها الشمس فلا تقوى على النموّ وتتلف وهو رأي لا يخلو من الصواب. ومن قائل انّ بزرها رديء لانّهُ ينشأ من شجر قديم العهد ضعيف البنية. وهو تعليل لا نرى فيهِ شيئاً من الصحّة لانّ هذا البزر نفسهُ غُرس في غير امكنة فطلع ونما

وعندنا ان لعدم نموّ ارز جديد في المكان تعليلين الاوّل انّ بزر الأرز اذا وقع من الشجر بقي في الطبقة العليا بين نفاية النبات فلا يبلغ الى تربة الارض ليمدَّ فيها اصولهُ وينال منها ما يحتاج اليهِ من العناصر المغذية التي لا يجدها في هذه الطبقة الفوقيّة. ولذلك يضعف ويموت

والتعليل الثاني انّ كثيرًا من السيّاح يقدمون الى غابة الارز فيطأون هذه الاغراس

الصغيرة فتتلف. والنباتيون يعلمون انّ أغراس الارز لا تنمو الّا بعد الاهتمام الكبير فكيف لا تهلك اذا داستها الاقدام

هذا وقد قرأنا في كتب بعض السيّاح الاجانب ما يزري بحقّ الارز ويسومهُ خسفاً. من ذلك ما كتبهُ أحد جوّالة الانكليز ان خائل بعض اشراف انكلترة لاوفى حسناً واتمّ جمالاً من غابة الارز وقال غيرهُ: انّ اقدم شجرة في الارز لا تضاهي شجرة من اشجار البارُباب (baobab) او البانيان (banian) التي تزين الغياض الافريقيّة او الهنديّة »

(نقول) انّ هذا الكلام يُشعر بهوى كاتبهِ ولو تروّى لما سطّر ما سطّر. لعمري انّ الذين يقدمون الى الارز لا يقصدون قطّ منظر شجر ضخم او غابة جبليّة لانّ غايتهم اسمى من ذلك فانّ الأرز اثر تاريخي ينبئ بفاخر لبنان القديمة ويروي للخلف مجد سلفائهم. هذا فضلاً عمّا سبق وصفهُ من انّ موقع هذه الغابة بين جبال شاهقة تحدق بها المناظر البهجة

وعلاوة على ذلك انّ للمسيحي سبباً آخر من شأنهِ ان يحملهُ الى زيارة الأرز وهو ذكر هذا الشجر في الاسفار المنزلة فان الله عزّ اسمهُ اطنب في مدحهِ واثنى على لبنان بسببهِ ونسبهُ الى نفسهِ حيث قال في المزامير (٧٩: ١١) عن الكرمة الرمزيّة التي هي اسرائيل: « غطّى ظلّها الجبال واغصانها أرزَ الله ». وشبّه بهِ اولياءهُ الصالحين (مز ٩١: ١٣) ورمز عن الحكمة المقدسة (٢٤: ٢٧). ومن الخواص التي استرسل الكتاب في وصفها بقاء الارز وصيرهُ على الايام دون فساد وهو الخشب الذي فضّلهُ سليمان لابتناء هيكل الرب

وقد شُغفت ايضاً كنيسة الله بأرز لبنان فاوردت مراراً ذكرهُ في صلواتها الطقسيّة. اما الشرقيون فاستحسنوا ان يشبّهوا بهِ البتول العذراء ويلتمسون حمايتها بتسميتها « ارزة لبنان » (١)

أفليست هذه الاسباب كافية للشرقيين عموماً ولاهل الشام خصوصاً بان يتوقّلوا مشارف لبنان ويزوروا هذه الغابة المقدّسة ويتشرفوا بمشاهدها

١) هذا وان النباتيين وعلماء الطبيعة يعدون هنا اصنافاً من النبات او من صغير الحيوان لا يعدونها الّا نادراً في امكنة أخرى. فمن ذلك انّنا وجدنا كثيراً من نوع الفراش المعروف باسم (Argyne Pandora) وهو فراش جميل للغاية يطلبهُ علماء الطبيعة بكل رغبة ولا يقفون عليهِ لندرتهِ

٣

قد اطلنا في وصف الارز فحان لنا ان نعود الى رحلتنا. بعد ان صرفنا بضع ساعات نرتشف في هـذه البقعة كأس الهناء قمنا فتسرّحنا من هذا المكان آسفين على فرقته وذهبنا الى بشرّاي حيث كان حضرة الاب اغناطيوس جمجع احد اساتذة كليّتنا الافاضل في انتظارنا. فتحفّى بنا وبالغ في اكرامنا ولم يُبالِ بطاونةٍ عرضت لهُ في صباح ذلك النهار فاذاقتهُ ألمًا شديدًا

وبعد الغداء جُلنا في بشرّاي وتبيّنّا ما نالتهُ تلك البلدة من سخاء يد الخالق. وهي قرية كثيرة الخصب غزيرة المياه وبيوتها مشرقة مؤنقة منتظمة بعضها فوق بعض تشقّها جداول الماء الصافي. وفيها الكنائس الواسعة الحسنة. واهلها مشهورون بالتقى والصلاح. وفي لهجتهم ولسانهم مسحةٌ من السريانية وبها كانوا يتكلّمون قبل مئة سنة هم واهل حصرون والقرى المجاورة

ولمّا كانت الساعة الثانية بعد الظهر خرجنا من بشرّاي قاصدين اهدن وهي من أعلى قرى لبنان لانّ علوها يبلغ ١٤٤٥ مترًا. فارتقينا في الجبل حتى وصلنا بعد نصف الساعة الى مشارفهِ فوقع نظرنا على القرية التي نقصدها وما مرّت علينا ساعة حتى انتهينا اليها. وممّا كان يستلفت ابصارنا في اثناء الطريق رؤية اهل تلك البلاد لاسيما شبّانهم فان سحنتهم تختلف عن سحنة غيرهم فترى بشرتهم ناعمة بيضاء وقامتهم طويلة وبنيتهم شديدة لهم اعضاء تجمع بين الصلابة والمرونة وفي وجههم ما يدلّ على مضاء العزيمة. وكنتُ اسمع كثيرين من رفقتي يهتفون اذا رأوهم: « ما احسن هيئة هؤلاء القوم ألا ترونهم من سلالة اوربيّة قديمة وردت هذه البلاد فتوطّنتها وتناسلت فيها الى عهدنا ». وكان يزيدنا عجبًا منهم لبسهم الانيق فان قلنسوتهم لبّادة بيضاء ورداءهم عباء ذو لون احمر قانئ مخطّط بالوان ونقوش شتى يبتاعونها من معامل طرابلس ويتسربلون بالسراويل الضيقة يجعلون سوقها في مَسام (طاقات) متينة تنتهي بانعال محدّدة الرؤوس كثيرة المسامير وهذه الثياب يلبسها أحداثهم فتزيدهم حسنًا

وتركنا على يميننا ديرًا عامرًا لم يتسنّ لنا ان نزورهُ وهو دير مار سركيس وفي ارضهِ تنبع عين غزيرة المياه طيّبتها تجري منها الى اهدن وعندها يجتمع اهل الضيعة في ايام الفراغ لترويح النفس

وفي اهدن بعض آثار تستحق الذكر ما لم يتسنَّ لنا ان نزورها. وهذه البلدة تفوق على كلّ قرى لبنان بحسن موقعها وطيب هوائها وكثرة مناظرها. فان في جوارها مكانًا يشرف على كل الانحاء المجاورة ويمتد منهُ البصر الى طرابلس وجون عكّار فيكشف على مرأى فتّان. فتعجّبنا كيف لا يتقاطر الى اهدن اهل السواحل في أيّام القيظ لينالوا فيها حظًّا موفورًا من الهناء.

وكانت زيارتنا الاولى عند وصولنا الى اهدن لكنيسة القرية وهي بناية كبيرة متسعة الجوانب كثيرة الانوار في وسطها صفّان من الدعائم يقسمان البيعة ثلاثة اقسام وسقفها مرتفع فوقهُ سطح رحب. وصحن الكنيسة مفروش بالرخام الابيض. وهيكلها محكم الصنعة بديع الترصيع. ولو نُقشت جدرانها ببعض التصاوير لأصبحت طُرفةً من غرائب لبنان

وفي مَوْقِفه (سكرستيًا) الكنيسة رجل شهير يعتبرهُ اهل لبنان كبطلهم الصنديد وفخر وطنهم ألا وهو الطيّب الذكر يوسف بك كرم الذي نُقلت جثتهُ بعد وفاتهِ في ايطالية الى مسقط رأسهِ. لكنَّ العجب اخذ منّا مأخذهُ اذ رأينا بقاياهُ المكرَّمة في زاوية لا شيء يدلّ على شرف صاحبها فانَّ الجسم مودعٌ في تابوت تعلوهُ الغبرة. واذا نُزع غطاء التابوت تجد لوحًا من الزجاج المشوَّه بالغبار تحتهُ جسم هذا الرجل الجليل القدر. وهو مخطّط يظهر منهُ وجههُ ورأسهُ ترى جلدها متقلّصًا ضاربًا الى السمرة شأن الاجسام المحنَّطة. والبك لابس ثياب شيوخ الجبل الفاخرة. ويدهُ اليسرى مكشوفة فيها بعض اللدونة لما يُذَرُّ عليها من الذرور. ومع كل ذلك قد ينبعث من الجثّة من حين الى آخر رائحة تدلُّ على انَّ الفساد لاحق بها. وسبب ذلك انَّ الهواء ينفذ الى داخلها من جوانب لوح الزجاج. وكان الأولى ان يُثبَّت الزجاج ويُسدَّ سدًّا محكمًا بالقراء واللاط. وعلى كل حال لا بُدَّ ان تُحفَّ هذه الجنازة ببعض الكرامة والأبهة ليعرف الزوّار قدر هذا الرجل الشريف (١)

وعند خروجنا من الكنيسة رأينا الفعلة يشتغلون ببناء قبّة جميلة للجرس تناسب الكنيسة حسنًا وجمالًا. وبقرب الكنيسة دير حضرات الآباء اللعازريين الذي كان يسكن فيهِ آباء رهبانيّتنا في القرن الماضي. فاحببنا زيارة هذا الدير وسلّمنا على حضرة

(١) ولعلَّ الجثّة وُضعت هناك موقّتًا وربما تُنقل الى كنيسة مار بطرس بعد انتهاء بنائها فتُجعل بمقام اهلٍ بها

الاب شنيارا المرسل الغيور الذي كان قدم اهدن ليقيم رياضة روحيّة لكهنة هذه الجهات ثمّ تحفّزنا للرحيل لندرك دير قزحيا قبل الغروب. وآثرنا الطريق المطروقة المارّة بكفر زغوب على طريق عين طورين لان هذه مع قصرها كثيرة الوعورة لا تسلكها الخيل فوصلنا بعد ساعة الى رأس الوادي الذي في سهبطه دير قزحيا. فظهر لنا من ذلك المشرف منظرٌ عجيب يروق الابصار بمحاسنه الطبيعيّة فكنّا نرى الغابات المتكاثفة والاشجار الفنواء ومحابس السيّاح تزين اعاليها الصلبان وفي الاسفل ابنية الدير ولواحقهُ العديدة

فما كدنا ان نتجاوز عتبة الباب حتى اقبل الينا رئيس المقاطعة مع رئيس الدير فرحّبوا بنا ترحاب الاخوان باخوانهم ثمّ اسرعنا الى زيارة الدير قبل ان يُرخي علينا الليل رواقهُ. ومن محاسن هذا المسكن الشهير كنيستهُ وهي متّسعة الساحة جميلة المنظر مبنيّة في كهف صخر كبير كأنّهُ رواق فوقها

وخزانة هذه الكنيسة غنيّة بآنية التقديس والآثار التقويّة. منها عكّاز من الخشب الثمين المرصّع بالاصداف البديعة. قيل لنا انّها هديّة اهداها القديس لويس التاسع الى الموارنة لمّا قدم بلاد الشام ويا حبّذا لو امكن الرهبان ان يؤيّدوا هذا التقليد بشهادة كتابيّة فتصبح هذه العصا الرعائية اثرًا مأثورًا بل ذخيرة غاية في القدر

ومنها ايضًا شعاع غريب الصنعة جامع لضروب المحاسن اهدتهُ الامبراطورة اوجيني عقيلة نابوليون الثالث. وكذلك بدلتان من ابدع شغل المعامل الاوربيّة احداهما تلطّف بتقدمتها لهذا الدير السعيد الذكر البابا غريغوريوس السادس عشر

ثم زرنا بعد ذلك المغارة التي أُفردت في هذا الدير لمعالجة المرضى المصابين باختلال الشعور. وموقعها على شمال مدخل الدير. فوجدنا فيها شابًا مسّهُ الجنون يسعى الرهبان بشفائهِ وهم ابرأوا قبلهُ ثلاثة اخوتهِ وكانوا مصابين بدائهِ فعادوا الى بيتهم بتمام الصحّة. وفي هذه السنة قد اتاهم عدد غفير من المجانين من كل الطوائف والملل حتى من اهل البدو والمتاولة. وقد أكّد لنا الناظر القائم على نظارتهم ان كثيرين منهم نالوا الشفاء. والرهبان يعزون ذلك الى شفاعة القديس انطونيوس الكبير ولديهم على ما افادونا عصاة ابي الرهبان يؤدبون بها المجانين في اوقات معلومة وهؤلاء المساكين مقيّدون بسلاسل مشدودة بجزء من الحديد لا يمكن قطعها. واذا خفّ عنهم الجنون وضعوهم في قلالي مخصوصة وعالجوهم بضروب العلاجات المفيدة

وفي هذا الدير المطبعة التي ورد وصفها في المشرق (٣: ٢٥١) فلا حاجة الى ذكرها لاسيما ان قصر وقتنا حال دون زيارتها وتفقُّد خزانة كتب الدير

ولمَّا تمَّ طوافنا في كل انحاء هـذا المقام المقدَّس دعانا الرئيس الى مأدبة شائقة توفَّرت فيها اسباب الهناء وتعدَّدت شارات اللطف والايناس من قِبَل من شرَّفونا بدعوتهم

وفي صباح اليوم الثـاني الموافق للجمعة الواقع في ٢٧ تموز اقرأنا الوداع سكَّانَ تزحيا الافاضل وشكرنا لطفهم ثمَّ أسرعنا مسرعين لنبيت في مـاء ذلك النهـار في البترون . وبين تزحيًا والبترون ثماني ساعات للسائر المُجِدّ . امَّا الطريق فكانت تختلف علينا فنهبط تربةً الى قعر الوديان ونتوقل تربةً الى قُنن الجبال

ومن القرى التي اجتزناها سرعل وطن حضرة رئيس الرهبـان الموارنة البلديين . وهي مشرفة على وادي قاديشا وهناك عقبة يُضرب في وعورتهـا المثل وكان الحرّ في ذلك اليوم لافحًا فاشتدَّت علينا حرارتهُ وابتُلينا بلهواته خصوصاً لمَّا قطعنا ارضاً كلها من الحوَّارى البيضاء كانت تنعكس منها الى وجوهنا اشعَّةُ الشمس

ولمَّا كان الظهر حططنـا عصا الترحال في ضيعة حقيرة على ربوة صهرتها الشمس تُدعى دير بعشتار فانتظرنا فيها ريثما تمرّ علينا الهاجرة وتتلطَّف الحرارة قليلاً

ولمَّا ازف وقت الرحيل انحدرنا الى منهبط وادي نهر الجوز من جهتهِ الشمالية في سكَّة كلسيَّـة التربة غاية في الوعورة . وفي اسفل هذا الوادي قلعة حصينة من بناء الصليبيين في القرون المتوسطة تعرف بقلعة المسيلحة ورد ذكرها في المشرق (٣: ٤٥٣) وهي عند مضيق بقرب الطريق التي تسير بين البترون وطرابلس ليس بعيـداً عن البحر . ثم سرنا مدَّةً بين مزارع وبساتين يغلب عليهـا اشجار التوت والتين فوصلنا نحو الساعة السادسة مساء الى البترون وركنَّا هناك الى الراحة بعد ان نالنا من العناء والنَّصب في طريقنا ما نال

وفي الغد رجعنا الى نهر الكلب راكبين العجلات كما فعلنا عند ذهابنا واتممنا هذه الرحلة بالسلامة شاكرين المولى على ما اسبغ علينا فيها من النِّعم